٣٢- باب قول الله تعالى:
﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ...﴾ [الأنفال: ٢] الآيَةَ.

وَقَوْلِهِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ ...﴾ [الأنفال: ٦٤] الآيَةَ.

وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ، قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ ﷺ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا...﴾ [آل عمران: ١٧٣] الْآيَةَ»[1]. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

○○○

الشرح:

ذكر المؤلفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب ثلاث آيات، وأثرا واحدا.

والكلام على هذا الباب في الفصلين التاليين:

❋ ❋ ❋

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٥٦٣).

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

بيان أن التوكل فريضة وعبادة من أعمال القلوب، يجب إخلاصها لله وحده لا شريك له.

* * *

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

المبحث الأول: حقيقة التوكل:

التوكل عمل قلبي محض، كما قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: التوكل عمل القلب[1].

والتعريف الجامع لمعنى التوكل أن يقال: هو صدق الاعتماد على الله - عز وجل - في جلب المنافع ودفع المضار، مع فعل الأسباب التي أمر الله بها.

ولا بد من استحضار أصلين عظيمين هنا، هما: علم القلب، وعمله.

فالأول: الثقة في الله - عز وجل -.

والثاني: اعتماد القلب عليه.

وليس بين هذين الأصلين تلازم، وتوضيح ذلك: أن العبد قد يثق بواحد من الناس، لكنه لا يعتمد عليه في أموره؛ لاستغنائه عنه. وقد يعتمد عليه مع عدم ثقته به؛ لحاجته إليه، وعدم من يقوم مقامه[2].

والثقة بالله تقوم على: تعظيم الرب في القلب، ومعرفة قدْرَه.

---

(١) «طريق الهجرتين» ص ٢٥٧.

(٢) ينظر: «مدارج السالكين» (١/ ٥٩).

فأنت تتعلق برب عظيم، لا حَدَّ لقدرته، وشمولِ علمه، وكمال صفاته، وهو الذي بيده كفاية من توكل عليه. ويجتمع مع ذلك إحسان الظن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والنظر في سعة رحمته، وعظيم جوده وإحسانه.

والثقة بالله تقتضي أن يفوِّض العبد أموره إلى ربه؛ ليقينِه بحكمته وحُسن تدبيره وسعة علمه. والتفويض هو روح التوكل ولبُّه وحقيقته(١).

ومع أن التوكل في الأصل عمل قلبي إلا أنه يشرع التلفظ به، مع عقد القلب عليه، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤ - ٨٥]، فقالوه لفظا عاقدين القلب عليه.

وقد جاء التلفظ بذلك في دعاء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والمؤمنين معه: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

وأمر الله نبيه بالتلفظ به في مُحاجة المعرضين، فقال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩].

○○○

(١) ينظر: المرجع السابق (٢/٨٩-٩٠).

المبحث الثاني: منزلة التوكل:

التوكل على الله قوة عند المُلِمَّات، وعُدَّةٌ في النَّائبات، وثبات على الحق أمام التحديات.

وهو للمؤمن جَنَّة عاجلة، وغنيمة سانحة، وطمأنينة وارِفَة .. هو الحصن الذي من دخله لا يخشى، ومن لاذ به لا يشقى، ومن اعتصم به كفاه المولى.

وقد ورد لفظُ التوكل في القرآن في اثنين وأربعين موضعا؛ منها:

قولُه تعالى في بيان صفة المؤمنين: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وجعله شرطا في الإيمان، فقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وشرطا في الإسلام، فقال: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾[يونس: ٨٤]، وتكفَّل الله بكفاية من توكل عليه، فقال جل وعلا: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ﴾ [الطلاق:٣] أي: كافيه، وقال لرسوله ﷺ: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال عن أصحاب نبيه رضي الله عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

والتوكل على الله – تعالى – من فروض الأعيان.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وتظن طائفة أن التوكل إنما هو من مقامات الخاصة المتقرِّبين إلى الله بالنوافل، وكذلك قولهم في أعمال القلوب وتوابعها؛ من الحب والرجاء والخوف والشكر ونحوه. وهذا ضلال مُبِين، بل جميع هذه الأمور فَرْضٌ على الأعيان باتفاق أهل الإيمان»(١).

والتوكُّل شعور ويقين بعظمة الله جَلَّجَلَالُهُ وربوبيته وقدرته، والتوكل قَطْع القلب عن العلائق ورَفْض التعلق بالخلائق، وإعلان الافتقار إلى الملك الرازق.

والتوكل إيمان وسكينة واطمئنان، ثقة بالله في الله، في وقت اختُرِق حصن التوكل في كثير من القلوب، فتعلقت بغير الله وتوكلت على الأسباب المادية.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ظهر أن التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان، ولجميع أعمال الإسلام، وأن منزلته منها منزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل»(٢).

○○○

المبحث الثالث: أنواع التوكل، ومجالاته:

التوكل على الله نوعان:

الأول: توكل عليه في الأمور الدنيوية.

---

(١) «مختصر الفتاوى المصرية» ص١٢٤.

(٢) «طريق الهجرتين» ص٢٥٨.

الثاني: التوكل على الله في الأمور الدينية، كتحصيل الإيمان، واليقين، والاستقامة، وطلب العلم، والجهاد، والدعوة إليه. وهذا أفضل النوعين، وهو توكل الأنبياء.

وبين النوعين من الفضل مالا يحصيه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فمتى توكل العبدُ على الله في النوع الثاني حقَّ توكله، كفاه النوعَ الأول تمامَ الكفاية.

وفي دائرة هذين النوعين تظهر مجالات كثيرة للتوكل؛ منها مثلا:

١- **الاستقامة والصلاح**: فيتوكل العبد على ربه في صلاح قلبه واستقامته على الصراط المستقيم. وهذا مقام عظيم من مقامات القلوب الحية التي تعِي معنى دعائها في كل ركعة ﴿**ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ**﴾ [الفاتحة: ٦].

٢- **الرزق**: فيوقن المسلم أن رزقه كُتِب وهو في بطن أمه، وهو بيَد الله؛ فيتوكل عليه في حصوله لا على غيره. وبعض الناس يعيش في هَمٍّ ونَكَد بسبب هذه اللقمة؛ كيف يوفرها لنفسه ولأولاده، ولو فوَّض الأمر إلى ربه لجاءه الرزق وهو قرير العين.

٣- **العافية والصحة**: فنجد بعض الناس إذا نزلت بهم الأمراض تعلقت قلوبهم بالأسباب الحسِّيَّة، بالطبيب فلان أو المستشفى الفلاني، وغفلوا عن

قوله - عز وجل - على لسان إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠].

٤- **قضاء الحاجات والمصالح**: فمما يُظهِر ضعف توكلنا على الله أنَّ أحدنا إذا كانت له حاجة أو معاملة أو طلب قبول في وظيفة أو دراسة، تجد أول ما يخطر في باله: الواسطة؛ لتسهيل الموضوع، والتعلق بفلان أو علان، ويغفل القلب عن التوجه إلى مُسبب الأسباب الذي بيده أمر كل شيء.

جاء رجل إلى الربيع بن عبد الرحمن، فسأله أن يكلِّم الأمير في حاجة له، فبكى الربيع رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ثم قال: أي أخي، اقصد إلى الله في أمرك تجدْه سريعا قريبا؛ فإني ما ظاهَرت أحدا في أمر أُرِيدُه إلا الله - عز وجل -، فأجده كريما قريبا لمن قصده وأراده وتوكل عليه(١).

٥- **النصر على الأعداء**: فما أحوج المسلمين اليوم، وقد تمالأت عليهم قوى الطغيان والكفر على اختلاف مللها ونحلها، أن تجتمع كلمتهم ويتوكلوا على ربهم! قال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

---

(١) «التوكل على الله» لابن أبي الدنيا ص ٧٤.

تَوَكَّلنـــــا عـــــلى الـــــرَّحمنِ إنَّـــــا
وَجَـــــدْنا الخـــــيرَ للمُتَوكِّلِينـــــا
ومَـــــن لـــــبِسَ التَّوَكُّـــــل لم تجِـــــدْهُ
يخـــــافُ جرائِـــــرَ المُتَجَبِّرِينـــــا[1]

○○○

المبحث الرابع: ثمرات التوكل:

الثمرة الأولى: تحقيق الإيمان:

فلا إيمان إلا لمن توكل على ربه، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

الثمرة الثانية: من أعظم أسباب الفوز بالجنة:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٨ - ٥٩].

بل يسبقون غيرهم، فيدخلون الجنة بغير حساب، كما سبق في حديث السبعين ألفا، حيث وصفهم ﷺ، فقال: «**هُمُ الَّذِينَ لا يَسْتَرْقُونَ، وَلا**

(١) «مجمع الحكم والأمثال» ص ٤٥٣، بترقيم الشاملة.

يَتَطَيَّرُونَ، وَلا يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»[1]، والمعنى: أنهم - لكمال توكُّلِهم - يتركون الأسباب المكروهة كالاكتواء والاسترقاء؛ لأن المسْتَرْقِيَ سائل مُستعْطٍ ملتفت بقلبه إلى غير ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. أما مباشرة الأسباب المباحة والتداوي على وجه لا كراهة فيه، فغير قادح في التوكل.

عن سعيد بن المسيب: أن سلمان، وعبد الله بن سلام التقيا، فقال أحدُهما لصاحبه: إن لقيتَ ربك قبلي فالقني وأعلمني ما لقيت، وإن لقيتُه قبلَك لقيتُك فأخبرتك! فتُوُفِّي أحدُهما، ولقِي صاحبَه في المنام، فقال له: «توكلْ وأبشر؛ فإني لم أر مثل التوكل»، قال ذلك ثلاث مرار[2].

الثمرة الثالثة: نَيْل محبة الله - تعالى -:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ومن أحبه الله وفقه وسدده، كما في الحديث القدسي: «**فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ**»[3].

الثمرة الرابعة: طمأنينة النفس وراحة القلب:

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد والرقائق» (٤٢٨)، وقال الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (١/٥٥٧): سلمان مات قبل عبد الله بسنوات رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٥٠٢).

فإذا تعلَّق القلب بربه اطمأن وسكَن، وهدأت النفس وذهب عنها القلق والهم وضيق الصدر، قال تعالى: ﴿**قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ**﴾ [التوبة: ٥١]. فمن كان يعاني قلقا يسهره، أو اكتئابا ينغص عليه حياته، فدُونَه دواءَ النفس: أن تسْبَح بها في رياض الذِّكر، وتُعَلِّق القلب بربه، وتُفَوِّض الأمر إليه.

يـــا صـــاحب الهَـــمِّ إنَّ الهَـــمَّ مُنفَـــرِجٌ
أبشـــر بِخـــيْر فـــإنَّ الفـــارِجَ اللهُ
إذا ابتُلِيـــتَ فثِـــقْ بـــاللهِ، وارْضَ بـــهِ
إنَّ الـــذي يكشِـــفُ البَلْـــوى هُـــو اللهُ
اليـــأسُ يقطَـــعُ أحيانًـــا بصـــاحبِهِ
لا تيأســـنَّ فـــإنَّ الكـــافِيَ اللهُ
واللَّهِ مـــا لَـــكَ غـــيْرُ اللهِ مِـــن أحَـــدٍ
فحَسْـــبُك اللهُ فِي كـــلٍّ لـــكَ اللهُ[1]

الثمرة الخامسة: كفاية الله للمتوكل جميع أمره:

وهذا جزاء المتوكِّل على ربه، قال تعالى: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ**﴾ [الطلاق: ٣]، أي: كافيه.

(١) «موسوعة الشعر الإسلامي» للشحود (١/٦٤)، بترقيم الشاملة.

ومن جملة ذلك: السحر والحسد، فمن أسباب الوقاية منها قوة توكل القلب على ربه، وصدق اعتماده وتعلقه به.

الثمرة السادسة: التوكل يُورِث قوة القلب وشجاعته وثباته:

قال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩].

قال الشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تعليقه على الآية: «إن الإيمان يوجب لصاحبه الإقدام على الأمور الهائلة التي لا يقدم عليها الجيوش العظام، فإنَّ المؤمنَ المتوكِّل على الله الذي يعلم أنه لا حول ولا قوة ولا استطاعة لأحد إلا بالله - تعالى -، وأن الخلق لو اجتمعوا على أن يضروه لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه، وعَلِم أنه على الحق، وأن الله - تعالى - حكيم رحيم في كل ما قدَّره وقضاه، فإنه لا يبالي بما أقدم عليه من قوة وكثرة، وكان واثقا بربه مطمئن القلب لا فَزِعا ولا جبانا؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يغالب قوته قوة، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما قضاه وأجراه»[1].

الثمرة السابعة: سبب في حصول الرزق:

عن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا**»[2].

---

(١) تفسير السعدي ص٣٢٢.

(٢) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٣٤٤)، وأحمد (٢٠٥)، وصححه الألباني.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٥٩ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٥٩-٦٠].

قيل لحاتم الأصم: على ما بنيت أمرك هذا من التوكل؟ قال: على أربع خلال: «علمت أن رزقي لا يأكله غيري، فلستُ أهتَمُّ له، وعلمت أن عملي لا يعمله غيري، فأنا مشغول به، وعلمت أن الموت يأتيني بغتة، فأنا أبادِرُه، وعلمت أني بعين الله في كل حال، فأنا مُستحْيٍ منه»(١).

وقيل لعمر بن عبد العزيز في مرض موته: هؤلاء بنوك - وكانوا اثني عشر - ألا توصي لهم بشيء؛ فإنهم فقراء؟ فقال: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]، هم بين رجلين: إما صالح، فالله يتولى الصالحين، وإما غير صالح، فما كنت لأعينه على فسقه. قال راوي الخبر: فلقد رأينا بعض أولاد عمر بن عبد العزيز يحمل على ثمانين فرسا في سبيل الله(٢).

ورزق إبراهيم النخعي بأكثر من عشرين ألف درهم في يوم؛ فتصدق بها جميعا! فقيل له: لو ادخرت منها لولدك، فقال: لقد ادَّخَرْتُها لنفسي، وادخرت الله لولدي، فاستجاب اللهُ لحُسن ظَنِّه، فكان الثراء والسعادة في ولده.

---

(١) «شعب الإيمان» (١٢١٦).

(٢) «البداية والنهاية» (١٢/٧١٥).

الثمرة الثامنة: التوكل حصن من تسلط الشيطان الرجيم:

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[النحل: ٩٨-٩٩].

○○○

المبحث الخامس: الأسباب وعلاقتها بالتوكل:

إن من المسائل المهمة في فهم حقيقة التوكل: أن يُعلم أن فعل الأسباب ومباشرتها من حقيقة التوكل؛ فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَعْقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ، أَوْ أُطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ؟ قَالَ: «**اعْقِلْهَا، وَتَوَكَّلْ**»(١).

والنبي ﷺ أعظم المتوكلين، ومع ذلك كان يأخذ بالأسباب؛ فكان يأخذ الزاد في السفر، ولمَّا خرج إلى أُحدٍ ظاهر بين درعيه(٢)، أي: لبس درعين اثنين، ولما خرج مهاجرا أخذ من يدُلُّه الطريق(٣)، وقال: من يحرسنا الليلة؟(٤)، وأمر بإغلاق الباب وإطفاء النار عند المبيت(٥).

---

(١) **حسن**: أخرجه الترمذي (٢٥١٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣٩٠)، وحسنه الألباني.

(٢) ينظر: سنن أبي داود (٢٥٩٠)، وسنن ابن ماجه (٢٨٠٦).

(٣) ينظر: صحيح البخاري (٢٢٦٣).

(٤) ينظر: سنن أبي داود (٢٥٠١)، ومسند أحمد (٣٧١٠).

(٥) ينظر: صحيح البخاري (٥٦٢٣)، وصحيح مسلم (٢٠١٢).

ويُذكر أنه قدم ناس من أهل اليمن إلى الحج بلا زاد، فجِيء بهم إلى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فسألهم، فقالوا: نحن المتوكلون على الله، فقال: لستم المتوكلين، بل أنتم المتواكلون[1].

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى حين قال: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَلَا تَعْجَزْ**»[2]، فأمر ﷺ بالحرص على الأسباب والاستعانة بالمُسبِّب، ونهاه عن العجز.

والقاعدة الجليلة التي ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، هي: «الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع. وإنما التوكل معنى يتألَّف من موجب التوحيد والعقل والشرع»[3].

ويقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، واصفا حال مريم لما جاءتها الولادةُ: ﴿**فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا**﴾ [مريم: ٢٤-٢٤]، فمع ضعفِها وكُربتها وكونها في المخاض، ربط اللهُ الأمورَ بأسبابها، فأُمِرَت بهزِّ جذع النخلة؛ ليسقط

---

(١) ينظر: «المجالسة وجواهر العلم» للدينوري (٣٠٢٧).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٦٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) «مجموع الفتاوى» (٨/ ١٦٩).

عليها الرطب، مع أنه كان يمكن أن يسقط الرطب دون هز وتحريك، لكن حكمة الله أن ربط الأمور بأسبابها.

○○○

المبحث السادس: التوكل بين التوحيد والشرك:

توكُّل القلب واعتماده في تحقيق أمر ما، له صور:

الصورة الأولى: أن يكون التوكل على الله – تعالى –.

فهذا هو التوحيد، وهو من تمام الإيمان، وهو واجب لا يتم الإيمان إلا به.

الصورة الثانية: التوكل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله. كالتوكُّل على الأموات أو الغائبين أو العاجزين في تحقيق مصلحة، أو دفع مضرة، ويسميه بعضهم «توكل السر».

فهذا شرك أكبر؛ لأنه لا يقع إلا ممن يعتقد أن لهذا الميت ونحوه تصرُّفا سِرِّيا في الكون، وسواء كان المتوكَّلُ عليه نبيا، أو وليا، أو فاجرا.

الصورة الثالثة: التوكل على غير الله فيما يقدر عليه.

كمن يعتمد ويتعلق قلبه بالأمير في حمايته، أو جلب رزقه، ونحو ذلك.

فهذا نوع من الشرك الأصغر، ويتعلق بقاعدة الأسباب التي سبقت، وسبق قريبا قولُ شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد».

تنبيه: الفرق بين التوكُّل والتوكِيل:

التوكيل: من الوَكالة التي يذكرها الفقهاء، وهي الإنابة في أمر تجوز فيه النيابة، كما لو وكَّلتَ فلانا في شراء بيت.

وهي ثابتة بدلالة النص والإجماع؛ فقد وكَّل النبي ﷺ على الصدقة عُمالا وحُفَّاظا[1]، ووَكَّل عليَّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حجة الوداع أن ينحر ما بقي من المئةِ بعد أن نحر ﷺ بيده ثلاثا وستين[2]. وأما الإجماع على جواز ذلك فمعلوم من حيث الجملة[3].

○○○

المبحث السابع: من أخبار المتوكلين:

الخبر الأول: لما رُفع إبراهيمُ الخليل ﷺ ليُلْقَى في النار عرَضَ له جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال: يا إبراهيم؛ ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، وأما من الله فبلى، وقال: حسبنا الله ونعم الوكيل[4]. فجاءته الكفاية والحماية فعطَّل الله النار عن خصائصها، وصارت بردا وسلاما على إبراهيم.

---

(١) ينظر: صحيح البخاري (٣٧٩٢)، ومسلم (١٠٤٥)، و(١٨٣٣).

(٢) ينظر: صحيح مسلم (١٢١٨).

(٣) ينظر: كتاب «الإقناع في مسائل الإجماع» (أبواب الإجماع في القضاء في الوكالات)، وما بعده.

(٤) ينظر: «حلية الأولياء» (١/ ٢٠)، «شعب الإيمان» (١٠٤٥)، و«السلسلة الضعيفة» (٢١).

الخبر الثاني: قصة الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ - أيضا - حين أسكَن هاجر وولدها بواد غير ذي زرع، فقالت هاجرُ: «**يا إِبْرَاهِيمُ، أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الوَادِي، الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلا شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: آللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ نَعَمْ، قَالَتْ: إِذَنْ لا يُضَيِّعُنَا**»(١).

الخبر الثالث: بعد غزوة أُحُد جاء بعض المشركين يخوفون النبي ﷺ وأصحابه بعودة المشركين إليهم لاستئصال شأفتهم، فكان حالهم كما وصف الله تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ**﴾ [آل عمران:١٧٣-١٧٤]، فهذه الكلمة (حسبُنا الله ونعم الوكيلُ)، هي شعار المسلم في الأزمات ..

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ، قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا: ﴿**إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ**﴾ [آل عمران: ١٧٢]»(٢).

وفي قصص الأنبياء، وسيرة نبينا ﷺ أمثلة كثيرة يتجلى فيها صدق التوكل على الله - تعالى -، ومن أسمائه ﷺ: المتوكِّل.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٣٦٤)، من حديث عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، مرفوعا.

(٢) تقدم تخريجه.

فالحاصل أن هذا الباب باب عظيم من أعمال القلوب، متعلقٌ بالتوحيد، وأنَّ المؤمن الموحِّد عليه أن يعتني ويحقق هذه الأعمال في قلبه؛ لأن أصل التوحيد في القلب؛ كالمحبة، والرجاء، والخوف، والتوكل، ونحو ذلك من أعظم الأعمال القلبية التي يتعبدُ بها العبدُ ربه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ويوحِّدُه بها دون مشارك.

* * *